سبل تفعيل الفهم المقصدي للسنة النبوية في الواقع المعاصر

ways to activate the intended understanding of Prophetic sunnah

د. فتيحة محمد بوشعالة[1]
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة
fatiha.bouchaala@gmail.com

تاريخ الوصول 2021/03/16 القبول2021/04/30 النشر على الخط 2021/07/15
Received 16/03/2021 Accepted 30/04/2021 Published online 15/07/2021

ملخّص:

يتمحور موضوع هذ البحث حول سبل تفعيل الفهم المقاصدي للسنة النبوية، ذلك أن للسنة ضوابط لفهمها، استقاها العلماء باستقراء نصوص الوحي، كما استنبطوا مقاصد الشريعة بالاستقراء أيضا، غير أنه من وجهة نظري نفتقد لآليات توظيف تلك المقاصد على الحقل المعرفي للسنة النبوية في ظل ضوابط فهمها، ومن هنا يُطرح الإشكال : ما هي سبل تفعيل الفهم المقاصدي للسنة النبوية؟ هذا ما يحاول هذا البحث الإجابة عنه، من خلال جملة من السبل، تتمثل في: * ضرورة فهم السنة مقترنة بالقرآن. * ضرورة التعامل مع النص القرآني والنبوي وكأنه أنزل علينا، فلا ينبغي قراءتهما بعقول غيرنا. *ضرورة الإلمام بمقاصد الشريعة الكلية، حتى نستطيع الرجوع إليها في فهومنا للواقع والنص. *ضرورة الربط بين السنة وبين التطبيق العملي لها والمتمثل في السيرة النبوية الصحيحة، حيث تعتبر السيرة النبوية تفسيرا لكثير من الغوامض ومشكلات النصوص . *ضرورة العمل على تنقية السنة النبوية من الروايات الواهية، التي كثيرا ما تشوش على مقاصد السنة، بل وتناقضها أحيانا. *ضرورة إعمال ضوابط فهم السنة . *ضرورة الإلمام بأمهات العلوم الأخرى، بدءا بالعلوم الشرعية وانتهاء بالعلوم المعاصرة كعلم النفس وعلم الاجتماع وغيرها، كونها تساعد على فهم النص النبوي والواقع، الذي نصبو إلى تنزيل النص عليه.

الكلمات المفتاحية: سبل ؛ تفعيل ؛ الفهم المقصدي ؛ السنة.

Abstract:

The theme of this research revolves around ways to activate the intended understanding of Prophetic sunnah because it has regulations for its understanding which had been drawn by the scholars from their analysis of the texts of revelation , and they deduced the purposes of Sharia by analysing as well. For me , we lack the mechanisms for using these purposes in the cognitive field of the Prophetic sunnah. hence the problem arises : what are the ways to trigger the intended understanding of the prophetic sunnah? This is what this research tries to answer , through a number of ways such as : • The necessity of understanding the sunnah associated with quran • The necessity of dealing with the quranic and prophetic texts as if it was revealed to us , so it should not be read by the mind of others. • The necessity of familiarity with all the purposes of sharia , so that we can refer to it in our understanding of reality and the text . • The necessity of linking the sunnah with its practical application represented in the authentic prophet's biography , as the prophet's biography is considred as an explanation of many ambiguities and problems of texts. • The necessity of working to purify the prophet's sunnah from flimsy narrations that often confuse the purposes of sunnah , and sometimes contradict them. • The necessity of implementing the regulations of understanding the sunnah. • The necessity of being familiar with other mother sciences starting with sharia science and ending with contemporary sciences such as psychology , sociology and others , as it helps to understand the text of the prophet which we aim to apply it on reality

Keywords: ways ; activation ; intended understanding ; sunnah.

[1]– المؤلف المرسل: فتيحة محمد بوشعالة البريد الإلكتروني: **fatiha.bouchaala@gmail.com**

مقدّمة:

الفهم الصحيح للسنة النبوية، يقتضي منا أن نفهمها فهما سليما تراعى فيه المقاصد العامة للدين، وقد فصل علماؤنا في مقاصد الدين وبينوا ما ترنو إليه الشريعة الإسلامية من تحقيق مصالح العباد في الدارين. غير أن كثيرا من تلك المقاصد التي سطرها العلماء واستنبطوها باستقراء النصوص هي اجتهادات بشرية لا بد من الاحتياط في تنزيلها على السنة النبوية. فالمقاصد ليست كلها قطعية، وإنما كثير منها استنباطي، أي اجتهادي وليست نصا شرعيا حتى تكون مجزوما بها.

ولذا وضع لها العلماء ضوابط تضبطها وفق النصوص الشرعية، حتى لا تكون هي المهيمنة على النصوص، بل النص هو الأصل والأساس.

وللمقاصد أهمية كبرى في فهم النص الشرعي وفي تنزيله على الوقع، حيث تعتبر موجها قويا لذلك.

ونشهد في واقعنا المعيش كثيرا من الانحرافات في فهم السنة النبوية ومن ثمة الانحراف في تنزيلها على الوقائع، مما عقد كثيرا وضع الأمة في تفاعلها الثنائي مع السنة ومع الواقع، فلا بد من فهم جديد للسنة النبوية مرتبطا بمقاصد الدين، ولا مناص من تفعيل ذلك الارتباط الضروري بينهما، وممن هنا جاءت فكرة هذا البحث الموسوم ب(سبل تفعيل الفهم المقصدي للسنة النبوية في واقعنا المعاصر)

ليجيب على إشكالية مفادها: ما هي السبل لتفعيل الفهم المقصدي للسنة النبوية في حياتنا؟

وتهدف هذه الدراسة للوقوف على جملة من الطرق التي تنير العقول لكيفية فهم سنة المصطفى ﷺ فهما سليما فعالا في ضوء مقاصد الدين.

وبعد النظر والاستقراء وقفت على جملة من تلك الآليات والأدوات، ضبطتها وفق الخطة الآتية:

مقدمة

المطلب الأول: فهم السنة مرتبطة بالقرآن:

المطلب الثاني: التعامل مع الوحي وكأنه أنزل علينا ويخاطبنا نحن.

المطلب الثالث: ضرورة الإلمام بمقاصد الشريعة.

المطلب الرابع: ضرورة الإلمام بضوابط فهم السنة.

المطلب الخامس: الرجوع إلى السيرة والربط بين أحداثها وبين السنة.

المطلب السادس: الحاجة إلى الإلمام بالعلوم الشرعية والعلوم المعاصرة ذات العلاقة بفهم السنة.

المطلب السابع: حتمية الانطلاق من نصوص السنة لفهم إشكالات الواقع وعلاجها، لا العكس.

الخاتمة.

المطلب الأول: فهم السنة مرتبطة بالقرآن:

السنة النبوية ما هي إلا تجسيد للوحي الرباني، الذي هو القرآن، ومن ثمة فهي تابعة له تدور حيث دار، وهو المهيمن عليها، في حين هي خادمة له: شرحا وبيانا وتفصيلا وتقييدا وتخصيصا. وفي حالات قليلة تستقل بالتشريع. ففي القرآن الكريم الأصول عموما وفي السنة الفروع والجزئيات والتطبيقات.

ويؤكد هذا المعنى حديث السيدة عائشة رضي الله عنها حين وصفت النبي ﷺ بقولها: (كان خلقه القرآن)[1]

وجاء في شرحه: " وَكَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ: الخُلق: الطبع، والخُلق: الدين، والخُلق أيضاً: المروءة"[2]

ومنه أيضا أن كل صفات النبي وأخلاقه وتصرفاته هي تجسيد لما جاء في القرآن: " وكون "خلقه القرآن" هو أنه كان متمسكًا بآدابه وأوامره ونواهيه ومحاسنه، وتوضيحه أن جميع ما قص الله تعالى في كتابه من مكارم الأخلاق مما قصه في نبي أو ولي أو حث عليه أو ندب إليه كان صلى الله تعالى عليه وسلم متخلقًا به، وكل ما نهى الله عنه فيه ونزه كان صلى الله تعالى عليه وسلم لا يحوم حوله."[3]

ومن هنا لا يمكننا أن نفهم السنة النبوية فهما سليما تراعى فيه مقاصد الشرع إلا وهي مقترنة بالقرآن الكريم. ومثال على ذلك هذا الحديث الذي يتحدث فيه النبي ﷺ عن التهديد بحرق بيوت من لا يشهدون صلاة العشاء، وهو متفق عليه، يقول أبو هريرة رضي الله عنه: (أن رسول الله ﷺ قال : " والذي نفسي بيده لقد هممت أن آمر بحطب ، فيحطب ، ثم آمر بالصلاة ، فيؤذن لها ، ثم آمر رجلا فيؤم الناس ، ثم أخالف إلى رجال ، فأحرق عليهم بيوتهم ، والذي نفسي بيده لو يعلم أحدهم ، أنه يجد عرقا سمينا ، أو مرماتين حسنتين ، لشهد العشاء.)[4]

فالحديث هنا يتحدث عن فضل صلاة الجماعة، وقد ترجم مسلم للباب بذلك، ولكن الذي يقرأ الحديث مبتورا عن كل نصوص الشريعة مغفلا المقاصد الكبرى التي جاءت بها من حفظ الدين وحفظ مصالح العباد، قد ينحرف به الفهم في معنى هذا الحديث، وهذا ما يفعله كثير من الحداثيين والتنويريين ،حيث يأخذون الحديث الواحد من السنة ويوظفونه لضرب السنة ومن ثمة ضرب الدين كلية، فمثل هذا الحديث قد يفهم منه، أن هذا الدين يحرض على العنف ضد أتباعه، ويسوقهم قهرا إلى اتباعه، وقد يصورون النبي ﷺ –حاشاه– صورة من هو شاهر سيفه لإكراه الناس على التدين.

في حين لو رجعنا إلى مجموع نصوص القرآن الكريم، لوجدنا الصورة الحقيقية لهذا النبي المبعوث رحمة للعالمين، فما بالك بأتباعه، قَالَ تَعَالَى:﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾ الأنبياء:107

---

[1]– أخرجه أحمد في مسنده، مسند الأنصار، الملحق المستدرك من مسند الأنصار – حديث السيدة عائشة رضي الله عنها، حديث:24766، وقال شعيب الأرنؤوط: صحيح. وأخرجه الطحاوي في مشكل الآثار باب بيان مشكل ما روي من خلق رسول الله صلى الله، حديث:3792.

[2]– مطالع الأنوار على صحاح الآثار، ابن قرقول، (2/ 445)

[3]– فتح الودود في شرح سنن أبي داود، أبو الحسن السندي، (2/ 78)

[4]– متفق عليه، أخرجه البخاري في –كتاب الأذان، أبواب صلاة الجماعة والإمامة – باب وجوب صلاة الجماعة، حديث:626، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاة الجماعة – حديث:1076، وغيرهما، واللفظ للبخاري

كما وصفه القرآن بأنه شديد الحرص على نجاة أتباعه رحيم مشفق عليهم، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ التوبة.

وفي أكثر من موضع يصفه بأنه يكاد يهلك نفسه على من لم يؤمن، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ الكهف: ٦

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾الشعراء: ٣

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ فاطر: ٨

إذا فنبي هذه صفاته في القرآن، لا يمكن أن يوصف بالعنف والفظاظة في معاملة من يصلي، ولذا يتوجب فهم معنى الحديث في سياق عموم القرآن والسنة، فلا يخرج عن مقاصدهما.

ولذا جاء في شرح هذا الحديث : " والذي يظهر – والله أعلم – أن النَّبِيّ ﷺ أخرج هَذَا الكلام مخرج تعظيم شهود العشاء فِي جماعة، والتنويه بفضله وشرفه ونفاسته، والنفوس مجبولة عَلَى محبة الأشياء الحسنة الشريفة النفيسة، والميل إليها، فوبخ من لَوْ طمع فِي وجود قطعة من لحم سمينة أو مرماتين حسنتين، وهما من ادنى الأشياء الدنيوية لبادر الى الخروج إليها، وشهد العشاء لذلك، وَهُوَ يتخلف عَن شهود العشاء فِي الجماعة مَعَ فضل الجماعة عِنْدَ الله، وعظم فضل الجماعة مَا يدخره لمن شهدها عنده من جميل الجزاء وجزيل العطاء، فيكون مَا يعجل لَهُ وإن كَانَ يسيراً من أمور الدنيا المستحسنة عنده مِمَّا يأكله أو يلهو بِهِ أهم عنده من ثواب الله الموعود بِهِ.

ويشبه هَذَا: قَوْلِ الله تعالى: {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} الجمعة/11 ، فإنه توبيخ لمن ترك الجمعة أو اشتغل عَنْهَا بالتجارة أو باللهو."[1]

المطلب الثاني: : التعامل مع الوحي وكأنه أنزل علينا ويخاطبنا نحن

وأنا أتحدث عن السنة أربطها دوما بالقرآن، والمقصود بهذا المطلب هو ضرورة قراءة وفهم السنة الثابتة في ظل واقعنا لنصل إلى حلول مناسبة لمشكلات هذا العصر ونوازله، في حين لو فهمناها بعقول القرون السابقة لما نفعتنا نصوص السنة، بل قد تزيد معضلاتنا تعقيدا، لأن الفهوم التراثية قد شرحت السنة وتعاطت معها لحل معضلات تلك العصور والأزمان، ولكل زمان أدواته وأمراضه وأدواؤه وأدويته.

فالسلف فهموا السنة بعيون وعقول واقعهم، والدين قرآن وسنة صالح لكل زمان ومكان، في حين الفهوم البشرية قد ينفعنا بعضها ونستفيد من تجاربهم، ولكنها ليست وحيا منزلا.

[1] – فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن رجب، (5/ 453).

فإذا أردنا أن نفهم السنة فهما سليما علينا أن نعيد قراءتها قراءة مباشرة، كأن النبي ﷺ يخاطبنا نحن مباشرة، وهذ يقتضي منا التحرر من عقول غيرنا ولو كانت عقول السلف في الفهم (أي الاجتهاد البشري)، أما ما كان يعتمد على النقل فذاك أصل لا نحيد عنه.

فالسلف اجتهدوا لزمانهم في فهم السنة، وعلينا أن نجتهد لزماننا، ولو توقف السلف عن إعمال العقول في فهم السنة والقرآن طيلة هذه القرون وقالوا لا نحيد عن فهم الرعيل الأول، وليس في الإمكان أبدع مما كان لما وصلنا كل هذا التراث الغني من التفاسير والشروح النفيسة ولم ينقطع من القرون الأولى إلى يومنا هذا.

وأمثل لذلك بأحاديث الطب النبوي، وأحاديث ما يسمى بالإعجاز العلمي.

وكذا الأحاديث التي تختلف فيها معاني المصطلحات من زمان إلى آخر، " وقد نبه الغزالي على تبدل أسامي بعض العلوم والمعاني عما كانت تدل عليه في عهود السلف، وحذر من خطر هذا التبدل وتضليله لأفهام من لا يتعمقون في تحديد المفاهيم...ثم لا يزال هذا التبدل يتسع مع تغير لزمان وتبدل المكان وتطور الإنسان، إلى أن تصبح الشقة بعيدة بين المدلول الشرعي الأصلي للفظ والمدلول العرفي أو الاصطلاحي الحادث المتأخر، وهنا ينشط الغلط وسوء الفهم غير المقصود، كما ينشأ الانحراف والتحريف المتعمد.

خذ مثلا كلمة (التصوير) التي جاءت في صحاح الأحاديث ، ما المراد بها في الأحاديث التي توعدت المصورين بأشد العذاب.

إن كثير من المشتغلين بالحديث والفقه يدخلون تحت هذا الوعيد أولئك الذين نسميهم في عصرنا (المصورين) وهم من يستعملون الكاميرا ويلتقطون هذا الشكل الدي يسمى صورة.

ولا يزعم أحد أ هذه التسمية شرعية، لأن هذا اللون من الفن لم يعرف في عصر التشريع، وأقصى ما يفعله من يسمى مصورا في هذا العصر هو عكس الصورة الحقيقية للشخص بآلات، مثل ما تنعكس صورة الشخص في المرآة...وهو ما ذكره مفتي الديار المصرية الشيخ محمد بخيت المطيعي في رسالته (الجواب الكافي في إباحة التصوير الفوتوغرافي)"[1].

المطلب الثالث: ضرورة الإلمام بمقاصد الشريعة الكلية

والمقصود بهذا أن من جهل شيئا لا يمكن أن يتصور ويفهم الكلام في إطاره وفي سياقاته، فالذي لا يعرف مقاصد الشريعة وليس مطلعا عليها ولا ملما بها لا يمكنه أن يفهم السنة النبوية في أبعادها المقاصدية، ومن ثمة يكون فهمه قاصرا عن الإحاطة بالكليات ويقع في النظرة التجزيئية التي تنحرف بالفهم عن غاياته الكبرى، لأن هذا الدين قرآنا وسنة كل لا يتجزأ من حيث الهدف والغاية الكلية ومن حيث المقاصد الجزئية، فإذا ذهبنا نفهم كل قسم منه على حدى انحرفت فهومنا عن مقاصد النص، وحين تنحرف الفهوم ينحرف التنزيل على الواقع، وقد شهدنا مثل هذه الانحرافات في واقعنا.

فلا بد على الباحث في علوم السنة والشريعة عموما أن يكون صاحب فكر مقاصدي، " والفكر المقاصدي أولا هو المتشبع بمعرفة معاني مقاصد الشريعة وأسسها ومضامينها، من حيث الاطلاع والفهم والاستيعاب، وفوق ذلك هو الذي آمن

[1]- كيف نتعامل مع السنة النبوية، يوسف القرضاوي، ص 198-199 بتصرف.

واستيقن مقصدية الشريعة في كلياتها وجزئياتها، وأن لكل حُكم حِكمته ولكل تكليف مقصده أو مقاصده. والفكر المقصدي هو الذي يفهم نصوص الشريعة ويفقه أحكامها في ضوء ما تقرر من مقاصدها العامة والخاصة...والفكر المقصدي يصبح مسلحا بالمقاصد ومؤسسا على استحضارها واعتبارها في كل ما يقدره أو يقرره أو يفسره، ليس في مجال الشريعة وحدها، بل في كل المجالات العلمية والعملية."[1]

وأمثل لهذه الفكرة بنموذج بات شائعا، وهو تحميل حديث ما لا يحتمل من المعاني بعيدا عن مقاصد الشريعة الكلية، وكذا غيره من الأحاديث التي تدور في معناه وموضوعه، حيث جاء في حديث مرفوع مطول لحذيفة بن اليمان رضي الله عنه: (يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهداي، ولا يستنون بسنتي، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس " ، قال : قلت : كيف أصنع يا رسول الله ، إن أدركت ذلك ؟ قال : " تسمع وتطيع للأمير ، وإن ضرب ظهرك ، وأخذ مالك ، فاسمع وأطع)[2]

فهذا الحديث حمل من المعاني في واقعنا المعاصر ما انحرف به عن سياقه، حيث اتخذ كذريعة لتبرير كثير من المعاصي التي يقوم بها بعض الحكام في عالمنا المسلم، والتغاضي عن انتهاكهم لحدود الله عز وجل، فصار الحاكم هيئة مقدسة لا يجوز مخالفتها بنص هذا الحديث وما كان في معناه.

وهذا انحراف كبير عن السنة النبوية وحسن فهمها، لأن فهم الحديث بهذا المعنى وهو وجوب طاعة ولاة الأمور مهما بدر منهم من معاصي ينافي مقاصد الدين الكلية والجزئية، التي جاء بها القرآن الكريم والسنة الثابتة، أما منافاته للمقاصد الكلية، فهو ينافي مقصد حفظ الدين أساسا، فطاعة هذا الولي الذي يأتي بالمعاصي ويخالف أمر الله في عدم إقامة الدين، وترك نصرة المسلمين وترك الجهاد في سبيل الله وموالاة الكافرين، وغيرها من الكبائر التي تهدم بيضة الدين.

في حين لو فهمنا مجموع الأحاديث التي تتحدث عن طاعة ولي الأمر في ظل مقاصد الشرع من حفظ الدين وحفظ بيضة الإسلام ومن حفظ عقيدة التوحيد ، ومقاصد السياسة الشرعية، لفهمنا أن المقصود هو طاعة ولي الأمر ما أقام دين الله وحافظ عليه، فإن لم يفعل فلا طاعة له.

وهذا ما فهمه علماء الأمة في معرض حديثهم عن شروط الإمامة الكبرى، حيث يقول ابن خلدون في مقدمته: "قد بيّنّا حقيقة هذا المنصب، وأنّه نيابةٌ عن صاحب الشّريعة في حفظ الدّين، وسياسة الدّنيا به"[3]

وقال الأمير الصنعاني: «ولكنْ شرَطَ السمعَ له والطاعةَ بقوله: (ما أقام فيكم كتاب الله) أي: ما عمل فيكم بالقرآن."[4]

---

[1]- الفكر المقصدي، قواعده وفوائده، أحمد الريسوني، دار الكلمة، القاهرة، ط الثالثة، 2014م. ص 37 باختصار.

[2]- أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر – حديث:3524، والحاكم في مستدركه، كتاب الفتن والملاحم، حديث:8396. وأبو داود في سننه، كتاب الفتن والملاحم، باب ذكر الفتن ودلائلها – حديث:3724، وأحمد في مسنده، مسند الأنصار، حديث حذيفة بن اليمان عن النبي صلى الله عليه وسلم – حديث:22836،وغيرهم، واللفظ لمسلم.

[3]- تاريخ ابن خلدون 239/1.

[4]- التحبير لإيضاح معاني التيسير، للصنعاني، 731/3.

وقال ابن حزم: «الإمام الواجب طاعته ما قادنا بكتاب الله تعالى وبسنة رسول الله ﷺ الذي أَمر الكتابُ باتباعها، فإن زاغ عن شيء منهما مُنع مِن ذلك.."[1]

وهذا ما استنبطه الإمام مالك بن أنس وجعله الشرط الأساس في ولي الأمر حتى يطاع: حيث علق على حديث ("إن أمر عليكم عبد مجدع – حسبتها قالت – أسود ، يقودكم بكتاب الله تعالى ، فاسمعوا له وأطيعوا)[2] حيث قال: "لا يكون أحدٌ إمامًا أبدًا إلا على هذا الشرط"[3]

المطلب الرابع: ضرورة الإلمام بضوابط فهم السنة.

الفهم السديد للسنة النبوية في ظل مقاصد الدين يقتضي من الباحثين والعلماء الإلمام بضوابط فهمها، وضوابط فهم السنة قد سطرها علماء الحديث، ولا يمكن فهم السنة إلا في إطارها، وأذكر منها مراعاة السياق، مراعاة أسباب الورود، جمع المادة الحديثية للموضوع وعدم الاعتماد على حديث أو حديثين في الباب للإحاطة بالموضوع من جميع جوانبه، العمل على إبعاد الأحاديث الواهية والمردودة التي كثيرا ما تشوش على مقاصد السنة النبوية، وأحيانا تحيد بها عن مقاصدها.

وأمثل لإغفال ضابط من ضوابط فهم السنة كيف يؤثر على الفهم المقصدي لها بالأحاديث الواهية الواردة في شأن المرأة، كيف شوهت صورة الإسلام وجعلت خصومه من مستشرقين وحداثيين غيرهم يكيلون له التهم باحتقار المرأة وهضم حقوقها، وجعلها في منزلة دنيا دون منزلة الرجل، في حين أن من مقاصد الدين عموما والسنة خصوصا حفظ كرامة الإنسان وتكريمه وصون إنسانيته. والآيات والأحاديث الثابتة ينص مجموعها على ذلك.

فحري بالمختصين، تنقية السنة من تلك الشوائب، وغربلة المرويات التي جاءت في شأن المرأة، فلا يحتج إلا بما هو ثابت، لأن الثابت لا يتعارض مع قرآن ولا مع سنة ثابتة، فالكل يخرج من مشكاة واحدة، هي مشكاة الوحي.

المطلب الخامس: الرجوع إلى السيرة والربط بين أحداثها وبين السنة.

تعتبر السيرة النبوية الثابتة هي الميدان التطبيقي لتعاليم الإسلام، والتجسيد العملي لنصوصه قرآنا وسنة، ومن ثمة فهي تعيينا كثيرا في فهم ما جاء من تعاليم نبوية حيث تشرح الغامض وتوجه المشكل، وتوضح المبهم وغير ذلك من بيان.

"وبذلك فالسيرة النبوية تعطينا صورة سليمة عن الإسلام في ماهيته وجوهره وحقيقته. صورة نتذوق منها روح الإسلام ومقاصده وأهدافه كما ترسم لنا أنموذجا حيا لمثل أعلى نقتدي به ونحتذي به.."[4]

وأمثل لدور السيرة النبوية الثابتة ودور أحداثها في بيان مقاصد نصوص السنة، بالأحاديث الواردة في نزول الحجاب، وبأمر نساء النبي ﷺ بالقرار في البيت، حيث جاء في الحديث الصحيح:(عن عائشة ، أن أزواج النبي ﷺ كن يخرجن بالليل إذا

---

[1]– الفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم ،84/4.

[2]– أخرجه مسلم في كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبا – حديث:2362، والنسائي في سننه، كتاب البيعة، الحض على طاعة الإمام – حديث:4142، وأحمد في مسنده، مسند الأنصار، من مسند القبائل – حديث أم الحصين الأحمسية، حديث:26672، وغيرهم، واللفظ لمسلم.

[3]– الصواعق المحرقة، لابن حجر الهيتمي، 37/1، وقد أورده بعد ذكر شرط أبي بكر t في خطبته بعد تولي الخلافة: «أطيعوني ما أطعتُ الله فيكم»، «إنما أنا متبع، ولست بمبتدع، فإذا أحسنتُ فأعينوني، وإذا أنا زغت فقوّموني.

[4]– أهمية دراسة السيرة النبوية، برهان زريق، ط الأولى، 2017م

تبرزن إلى المناصع وهو صعيد أفيح " فكان عمر يقول للنبي ﷺ : احجب نساءك ، فلم يكن رسول الله ﷺ يفعل " ، فخرجت سودة بنت زمعة ، زوج النبي ﷺ، ليلة من الليالي عشاء ، وكانت امرأة طويلة ، فناداها عمر : ألا قد عرفناك يا سودة ، حرصا على أن ينزل الحجاب ، فأنزل الله آية الحجاب)[1]

وكذا حديث: (عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : خرجت سودة بعدما ضرب الحجاب لحاجتها ، وكانت امرأة جسيمة لا تخفى على من يعرفها ، فرآها عمر بن الخطاب فقال : يا سودة ، أما والله ما تخفين علينا ، فانظري كيف تخرجين ، قالت : فانكفأت راجعة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي ، وإنه ليتعشى وفي يده عرق ، فدخلت فقالت : يا رسول الله ، إني خرجت لبعض حاجتي ، فقال لي عمر كذا وكذا ، قالت : فأوحى الله إليه ثم رفع عنه ، وإن العرق في يده ما وضعه ، فقال : " إنه قد أذن لكن أن تخرجن لحاجتكن)[2] وقد ترجم البخاري للباب بقوله: باب خروج النساء لحوائجهن.

وأن الأمر أولا خاص بأمهات المؤمنين وليس كل النساء، ثانيا : أن القرار والحجاب ليس معناه أن تمنع نساء النبي ﷺ من الخروج مطلقا وإنما المقصود هو ألا يخرجن إلا للحاجة إعلاء لقدرهن لمكانتهن من رسول الله ﷺ ولمنزلتهن في الأمة. وليس المقصد من ذلك منع النساء عموما من الخروج وتقييدهن.

وقد أوضحت السيرة النبوية هذا المقصد بوقائع عديدة ثابتة، تبين أن النساء كن يخرجن لحوائجهن من غير اعتراض من مجتمع النبوة، سواء في ذلك أمهات المؤمنين أو باقي النساء، مع مراعاة خصوصية أمهات المؤمنين، نذكر منها، سيرة السيدة خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، وكيف كانت تسعى مع النبي ﷺ من أجل تثبيته ونصرته، حيث سارت به إلى ورقة بن نوفل لتستفيد من خبرته في طمأنة النبي ﷺ. جاء في الحديث المطول :(...فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة وكان امرأ تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخا كبيرا قد عمي ، فقالت له خديجة : يا ابن عم ، اسمع من ابن أخيك..)[3]

ومن ذلك أيضا خروج السيدة عائشة رضي الله عنها ذات ليلة لوحدها غيرة على النبي ﷺ ، حيث قالت: (ألا أحدثكم عني وعن رسول ﷺ قلنا : بلى ، قال : قالت : لما كانت ليلتي التي كان النبي ﷺفيها عندي ، انقلب فوضع رداءه ، وخلع نعليه ، فوضعهما عند رجليه ، وبسط طرف إزاره على فراشه ، فاضطجع ، فلم يلبث إلا ريثما ظن أن قد رقدت ، فأخذ

[1]– متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب الوضوء، باب خروج النساء إلى البراز – حديث:145، ومسلم في كتاب السلام، باب إباحة الخروج للنساء لقضاء حاجة الإنسان – حديث:4130، وغيرهما.

[2]– متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن

سورة البقرة – باب قوله : لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم، حديث:4521، ومسلم في كتاب السلام، باب إباحة الخروج للنساء لقضاء حاجة الإنسان – حديث:4129،

[3]– متفق عليه، أخرجه البخاري في باب بدء الوحي / 0 بسم الله الرحمن الرحيم قال الشيخ، حديث:3، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم – حديث:257.

رداءه رويدا ، وانتعل رويدا ، وفتح الباب فخرج ، ثم أجافه رويدا ، فجعلت درعي في رأسي ، واختمرت ، وتقنعت إزاري ، ثم انطلقت على إثره ، حتى جاء البقيع فقام ، فأطال القيام ، ثم رفع يديه ثلاث مرات ، ثم انحرف فانحرفت ، فأسرع فأسرعت ، فهرول فهرولت ، فأحضر فأحضرت ، فسبقته فدخلت ، فليس إلا أن اضطجعت فدخل ، فقال : " ما لك ؟ يا عائش ، حشيا رابية " قالت : قلت : لا شيء ، قال : " لتخبريني أو ليخبرني اللطيف الخبير " قالت : قلت : يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي ، فأخبرته ، قال : " فأنت السواد الذي رأيت أمامي ؟ " قلت : نعم ، فلهدني في صدري لهدة أوجعتني ، ثم قال : " أظننت أن يحيف الله عليك ورسوله ؟ " قالت : مهما يكتم الناس يعلمه الله ، نعم.)[1]

ولا يخفى خروجهن رضي الله عنهن في السفر وفي الغزوات، وأما باقي النساء فكن يخرجن دون حرج في ذلك ما كانت لهن حاجة، والسيرة النبوية طافحة بقصصهن، منها خروج أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها أثناء هجرة النبي ﷺ، ومساعدتها في تأمين الهجرة، هجرة أم سليم، بل وعملهن رضي الله عنهن خارج البيت، ومن ذلك تلك الحادثة التي حدثت لأسماء مع النبي ﷺ لما كانت تعمل في أرض لها، حيث جاء في الحديث المطول:(عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما ، قالت : تزوجني الزبير ، وما له في الأرض من مال ولا مملوك ، ولا شيء غير ناضح وغير فرسه ، فكنت أعلف فرسه وأستقي الماء ، وأخرز غربه وأعجن ، ولم أكن أحسن أخبز ، وكان يخبز جارات لي من الأنصار ، وكن نسوة صدق ، وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التي أقطعه رسول الله ﷺ على رأسي ، وهي مني على ثلثي فرسخ ، فجئت يوما والنوى على رأسي ، فلقيت رسول الله ﷺ ومعه نفر من الأنصار ، فدعاني ثم قال : " إخ إخ " ليحملني خلفه ، ف استحييت أن أسير مع الرجال ، وذكرت الزبير وغيرته وكان أغير الناس ، فعرف رسول الله ﷺ أني قد استحييت فمضى ، فجئت الزبير فقلت : لقيني رسول الله ﷺ، وعلى رأسي النوى ، ومعه نفر من أصحابه ، فأناخ لأركب ، فاستحييت منه وعرفت غيرتك ، فقال : والله لحملك النوى كان أشد علي من ركوبك معه ، قالت : حتى أرسل إلي أبو بكر بعد ذلك بخادم تكفيني سياسة الفرس ، فكأنما أعتقني.)[2]

المطلب السادس: الحاجة إلى الإلمام بالعلوم الشرعية والعلوم المعاصرة ذات العلاقة بفهم السنة.

المراد بهذه المسألة أن الباحث الذي يسعى لفهم السنة فهما صحيحا يقف فيه على روح النص ومقصد النبي ﷺ منه، عليه في تعامله مع السنة النبوية ونصوصها أن يكون ملما بكل العلوم التي تساعد في الوصول إلى مقاصدها، ومن ذلك الإلمام بالشروح الحديثية والتفاسير وعلم الأصول والعقائد واللغة وغيرها من العلوم الشرعية التي لها علاقة وطيدة بفهم النص النبوي.

[1]- أخرجه مسلم في كتاب الجنائز، باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها - حديث:1672، والنسائي في سننه كتاب الجنائز الأمر بالاستغفار للمؤمنين - حديث:2020، وأحمد في مسنده، مسند الأنصار، الملحق المستدرك من مسند الأنصار - حديث السيدة عائشة رضي الله عنها، حديث:25317، واللفظ لمسلم.

[2]- متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب النكاح، باب الغيرة - حديث:4930، ومسلم في كتاب السلام،باب جواز إرداف المرأة الأجنبية إذا أعيت في الطريق - حديث:4145.

وكذا العلوم المستجدة التي تسهم في بيان المراد من النص النبوي مثل علم النفس وعلم الاجتماع، علم التاريخ، علم الاقتصاد، العلوم الطبية، إلخ.

فما لم يلم الباحث بهته العلوم ويكون محيطا بالقدر الواجب منها، يكون مقصرا في فهم واقعه، ومن ثم يعجز عن تنزيل النص عليه.

فهذه العلوم المستجدة تعين كثيرا في فهم مقاصد السنة كونها جزء من الاجتهاد البشري في فهم الإنسان وفي فهم محيطه، حيث تعتبر شرحا معاصرا لكثير من نصوص السنة النبوية وبيان مقاصدها .

ويتجلى هذا بوضوح في جانب الطب النبوي وكيف ساعدت العلوم التجريبية على الوقوف على معاني نصوص السنة وبيان مقاصدها التي خفية في الأزمنة السالفة.

ونضرب مثالا على ذلك ما توصل إليه الطب من بيان ضرورة الوقاية من الأمراض وأن لذلك إجراءات عملية لا بد من اتباعها، فكان ذلك بمثابة شرح وتفسير لما جاء في السنة وتوضيح مقاصدها في حفظ البدن والمحافظة على الصحة عموما، ومن ذلك حديث عمر عن التعامل مع الطاعون، جاء عن أسامة بن زيد رضي الله عنه: (عن النبي ﷺ أنه قال : " إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها " فقلت : أنت سمعته يحدث سعدا ، ولا ينكره ؟ قال : نعم)[1]

فكشف الطب الحديث أن هذا إجراء وقائي المقصد منه الحد من انتشار الوباء، بتحويطه وتضييق دائرته إذا كان في الداخل، وإذا كان خارج الأرض فالإجراء وقائي لمنع وصوله لغير المرضى.

المطلب السابع: حتمية الانطلاق من نصوص السنة لفهم إشكالات الواقع وعلاجها، لا العكس.

المقصود بهذا العنوان هو جعل السنة النبوية هي المنطلق لفهم الواقع وعلاج إشكالاته ونوازله، لا العكس، حتى نفهم مقاصدها ونقف على روح النص النبوي ونفهمه فهما سليما، فالنص هو المهيمن لا الواقع.

لأنه نرى في كثير من الأحيان يلجأ بعض الباحثين المعاصرين متأثرين بالحضارة الغربية وما أنتجته من معارف وعلوم مستجدة إلى إيجاد حلول تلفيقية مستلهمة من تجارب الغرب والشرق ثم محاولة صياغتها صياغة إسلامية وذلك بمحاولة تدعيمها ببعض نصوص الوحي لإعطائها الصبغة الإسلامية، وهي في جوهرها مخالفة لروح النص النبوي، فيضطرون أحيانا إلى تأويل النصوص تأويلا بعيدا عن منطوقها ومفهومها لتوافق تلك المعارف البشرية التي تحتمل الخطأ والصواب، ويبتعدون بذلك عن مقاصد الشريعة عموما والسنة خصوصا.

ومن الأمثلة على ذلك ما يفعله بعض الشغوفين بمسألة الإعجاز العلمي حيث يتكلفون في تأييد بعض الاكتشافات التي توصل إليها العلم، ولم تصل إلى حد الحقيقية العلمية، ببعض النصوص من السنة النبوية لتأكيد فكرتهم العلمية أحيانا، وبنية حسنة لبيان صدق هذا الدين أحيانا أخرى.

[1]- متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون - حديث:5404، ومسلم في كتاب السلام، باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها - حديث:4206، واللفظ للبخاري.

فينطلقون من وقائع لبيان معاني السنة والوقوف على مقاصدها، والأصل أن ينطلقوا من نصوص السنة.

"ما يراه بعض المهتمين بالإعجاز العلمي في الهدي النبوي أن في إسباغ الوضوء دلالة علمية وفوائد طبية بالغة، وتربط د. ماجدة عامر في كتابها (الجوارح وأسرار الوضوء) بين التخليل للأصابع – وهو سنة من سنن الوضوء- وبين علم تدليك الضاغط الصيني acupressure وهو التدليك الضاغط فوق مناطق معينة في الجسد تسمى نقاط العلاج.

تقول الدكتورة: "إن هذه الوسيلة (التدليك) تعيد توازن وسير الطاقة الحيوية في مساراتها، وبالتالي تزيل أي خلل أو ركود في الطاقة. ومن الأسباب التي تفسر زوال الآلام بهذه الوسيلة هو زيادة إفراز مادة الأندروفين أو المورفينات الطبيعية عن طريق الخلايا العصبية، وقد وجد الصينيون أن ما بين أصابع اليدين نقاطا تسمى Extrapoints. وهذه النقاط تعالج الصداع وتعتبر مسكنا طبيعيا لالتهاب الأعصاب الطرفية، وبالتالي يتبين لنا أن عملية التخليل تعد عاملا من عوامل منع الإصابة بالصداع، ومسكنا لآلام الأصابع، وتدليك اليدين يشابه تأثير المساج الصيني أيضا في بعض نقاط، فمنها المسكنة ومنها المنشطة".

وتمضي المؤلفة على هذا النهج من التنظير والتقريب بين أفعال الوضوء ونظريات الطب الصيني بدءا من المضمضة والاستنشاق...مع التركيز على الأثر الصحي الهائل لتلك التدليكات، في الوقت الذي يعاني فيه المسلمون كغيرهم من شتى صنوف الآلام الروماتيزمية والصداع وغيرها، رغم ممارستهم المنتظمة لفريضة الوضوء.

وهذا الربط بين الوضوء والنظريات العلاجية الصينية ليس فقط يفتقر إلى ما يبرهن عليه أو يثبته، فهذه نظريات لم تزل موضع شك في الأوساط العلمية، بل أيضا فيه الكثير من الإقحام ومحاولة قسر النظريات وتطويعها، مما يقلل من الثقة والمصداقية....إضافة إلى أن الطب الصيني يقوم على نظرية التوازن بين الين واليانج وهو تصور يقوم على عقيدة الطاو التي ملخصها أن كل شيء في الكون مرده إلى الطاقة الكونية التي يزعمون وجودها، وهي فكرة فلسفية بديلة لعقيدة الأولوهية.."[1].

خاتمة:

وفي ختام هذه الورقة البحثية يمكننا أن نقف على جملة من النتائج مفادها :

- لا يمكننا أن نفهم السنة النبوية فهما مقصديا بعيدا عن أصلها وهو القرآن.
- إذا أردنا أن نقف على مقاصد السنة النبوية علينا أن نتعامل مع نصوصها تعامل من يوجه له الخطاب مباشرة. بمعنى أن نفهمها بعقولنا لا بعقول غيرنا.
- ضرورة الإلمام بمقاصد الشريعة والإحاطة بها حتى يتسنى لنا فهم السنة في ضوئها.
- لا مناص من الاستعانة بالسيرة النبوية الثابتة لفهم مقاصد نصوص السنة النبوية، كونها التجسيد الفعلي للسنة.
- ضرورة معرفة ضوابط فهم السنة أساسا، حتى لا تنحرف الفهوم عن مسارها الصحيح.

[1]- أحاديث الطب النبوي، حجيتها وضوابطها وفهمها، أبو بكر بن الطيب كافي، مطبعة الرمال، الوادي، الجزائر، 2020م.، ص86-88 باختصار.

- حتمية الإلمام بالعلوم المساعدة على فهم السنة ، التراثية والمستجدة.
- لتنزيل السنة والوقوف على مقاصدها في واقعنا لا بد من الانطلاق من السنة في فهم الواقع وعلاج إشكالاته، لا العكس.

وفي الأخير ليتحقق كل هذا أوصي بالعمل على تفعيل مؤسسات بحثية علمية متخصصة تسعى لفهم السنة فهما وفق مقاصدها لتنوير الأمة في واقعها وعلاج إشكالاتها.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم، مصحف المدينة الالكتروني .
- أحاديث الطب النبوي، حجيتها وضوابطها وفهمها، أبو بكر بن الطيب كافي، مطبعة الرمال، الوادي، الجزائر، 2020م.، ص86-88 باختصار.
- أهمية دراسة السيرة النبوية، برهان زريق، ط الأولى، 2017م
- تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، تح خليل شحادة، سهيل زكار. دار الفكر، 2001م.
- التحبير لإيضاح معاني التيسير، الأمير الصنعاني، تح محمد صبحي حسن حلاق، مكتبة الرشد، ناشرون، الرياض، ط الأولى، 2012م.
- الجامع الصحيح، محمد بن إسماعيل البخاري، تح محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط الأولى، 1422هـ.
- سنن أبي داود، أبو داود السجستاني، تح شعيب الأرناؤوط وآخرون، دار الرسالة العالمية، ط الأولى، 2009م.
- شرح مشكل الآثار، أبو جعفر الطحاوي، تح شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط الأولى، 1994م.
- الصواعق المحرقة، ابن حجر الهيتمي، تح عادل شوشة، مكتبة فياض، المنصورة، مصر، ط الأولى، 2008م.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن رجب، تح محمود بن شعبان بن عبد المقصود. **وآخرون**، مكتبة الغرباء، المدينة المنورة، ط الأولى، 1996م.
- فتح الودود في شرح سنن أبي داود، أبو الحسن السندي، تح محمد زكي الخولي، مكتبة أضواء المنار المدينة المنور، ط الأولى، 2010م.
- الفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم ، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ت، د.ط.
- الفكر المقصدي، قواعده وفوائده، أحمد الريسوني، دار الكلمة، القاهرة، ط الثالثة، 2014م.
- كيف نتعامل مع السنة النبوية، يوسف القرضاوي، دار الشروق القاهرة، ط الثانية، 2002م.
- المجتبى من السنن، أبو عبد الرحمن النسائي، تح عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط 2، 1986م.
- المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، تح مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، 1990م
- مسند أحمد، أحمد بن حنبل، تح شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط الأولى، 2001م.
- المسند الجامع، مسلم بن الحجاج النيسابوري. تح محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط، د.ت
- مطالع الأنوار على صحاح الآثار، ابن قرقول.